العرب أمة شاعرة ، مافي ذلك شك ، ولا هو في حاجة الى اثبات بعد الدراسات المفصلة التي نهض بها القدامى والمعاصرون ، وكثيرا ماتغنوا بالطبيعة في جميع مظاهرها التي شاهدوها في بيئاتهم ، واستوحوا منها أفانين المقال ، وضروب المعاني وألوان الخيال ، لأن البيئة الطبيعية والاجتماعية لها آثارها العميقة في شاعرية العرب وفي

شاعرية العرب وأد

استعدادهم الفطري لانتاج هذا الفن الرفيع وتذوقه والتاثر به وتقديره والتسامي بقائليه ٠

وهي الينابيع الثرة التي كان الشعراء يستمدون منها موضوعاتهم في وصف مظاهر الطبيعة من أرض ومناخ وبحر وغدران ونبات وشجر وحيوان مستانس وطير ووحش وزواحف ومطر وفروح الخ ٠٠

ثر البيئة فيها

للدكتور أحمد الحوفي

(١)

ولقد منح الله العرب كما منح بعض الامم موهبة الشاعرية أو الاستعداد الطبيعي لقرض الشعر والميل الى استماعه ·

وهذه الهبة ينبوع لامندوحة للشاعر أو الفنان أن يستقي منه والا جاء فنه مصطنعا مفتعلا لاتأثير له ، ولا غناء فيه ·

وما من شك في أ نالافراد يتفاوتون في عدة أمور بعضها جسمي وبعضها نفسي ، فهذا قصير وهذا طويل ، وذاك ربعة ، وذاك عملاق ، وذلك قزم ، وذلك ضخم ، وذلك نحيل ، وهذا أبيض ، وذاك أشقر ، وذلك أسود ، وبين هذا وذاك درجات شتى في الالوان ، وهذا قوي البناء شديد الأيد ، واذك رخو ضعيف وهكذا ·

كذلك تختلف حظوظهم من المواهب والميول والاستعداد ، فمنهم من يهوى فنا من الفنون ، ومنهم من يميل الى العلوم النظرية ، ومنهم من تغلب عليه النزعة العملية ، وبعضهم كلف بالحرب ، وبعضهم مشغوف بالمال وبعضهم يحيا حياة صماء لاميل فيها لشيء من الاشياء وفي الناس غير هؤلاء أصناف شتى ·

هذا الذي نصف به الافراد نستطيع أن نطبقه على الامم ، على أساس الميل الغالب والوصف الشائع ·

ونستطيع أن نصف العرب في العصر الجاهلي بأنهم أمة شاعرة ·

ولسنا نعني بهذا أن كل عربي شاعر ، وأن كل عربية شاعرة ، وانما نعني أن الشاعرية هبة شائعة فيهم على تفاوت في عمظتها وضآلتها ، وجودتها ورداءتها كذلك لانريد بالشاعرية أن كل عربي قدير على قرض الشعر وتجويده ، بل نريد أن كثيرا من العرب كانوا شعراء بالقوة ، وكثيرا منهم كانوا شعراء بالفعل كما يقول علماء المنطق ·

ومعنى هذا أن الشاعرية التي نقصدها هي القدرة الفعلية على قول

الشعر للتعبير عما في النفس ، وهي أيضا القدرة على تذوق هذا الشعر ، والطرب لسماعه ، وتمييز جيده من رديئه ·

فقد يكون الشخص مفتونا بالجمال ، أو مأخوذا بالبطولة أو مشغوفا بالحماسة ، أو مشدوها بالحزن ، أو موصولا بسبب ما من أسباب الشعر ، لكنه غير قادر على تصوير خلجات نفسه فاذا ماقرأ شعر غيره أو سمعه وقع من نفسه وخالطها ، لأنه تصوير لما بها أو لمثل مابها ·

ولقد صدق هكسلي Huxley في قوله : (يجب أن نتذكر أن قيسا وليلى وأنطوني وكليوباترة موجودون بيننا بكثرة لاتخطر على بالنا ، ذلك أنه يصعب على عابر الطريق أن يقرأ على وجوه الناس مدى عمق عواطفهم وكل وسائله في هذا أن يحدس ويستنتج من تصرفاتهم وكلامهم ، لأن ألفاظهم في الاكثر الاعم لاتسترعي الانتباه ، اذ كان التعبير الرائع موهبة لم يمنحها الخالق الا فئة نادرة من الناس ·

واذن فان ضعف التعبير ليس دليلا على ضعف الشعور ، بل انه من المؤكد أن عدد المعبرين في جمال فني أقل بكثير جدا من عدد المحبين (١) ، فليس عجيبا أن تنبه القدماء والمحدثون الى ضرورة الاستعداد الفطري للشاعر ، فنادى أرسطو منذ القرن الثالث قبل الميلاد في كتابة (صناعة الشعر) بأن النبوغ في الشعر يتوقف على استعداد طبيعي عند الناشيء وقال ان انبثاق الشعر يرجع الى غريزتين متأصلتين في طبيعة الانسان ، احداهما غريزة التقليد أو المحاكاة والاخرى غريزة اللحن والنغم ، فالذين بدأوا حياتهم مزودين بقدر وافر من هاتين الموهبتين وساعدتهم ظروف حياتهم على تنمية هذا الاستعداد ، فاضت قرائحهم بالشعر ، وكان لهم فيه شأن ومجال (٢)

وتساءل سيرل برت C. Burt : هل هناك استعداد فطري لعبقرية الشاعر مثل الاستعداد الفطري للعبقرية بعامة ؟

وأجاب عن هذا التساؤل بالايجاب لكنه احتاط في اجابته ، فقال ان الفرق بين الشاعر وبني جلدته فرق في الدرجة لا في النوع ·

كذلك رأى دي لاكروا أن الشاعر يمتاز بقدرات فطرية خاصة ، ولاحظ كوفكا أن الخبرة لاتضيف أمورا جديدة على السلوك وقصارى ماتعمل أنها تساعد على الترقية والاتمام (٣)

ولم يكن العرب في غفلة عن هذا الاستعداد فكثيرا مااشترطوه وتحدثوا به ونادوا بضرورته ·

نجد هذا واضحا في وصية بشر بن المعتمر ، وفي وصية أبي تمام للبحتري وفي كتاب الوساطة للجرجاني ، وكتاب المثل السائر لابن الاثير وغيرهم ،

وحسبنا أن نذكر بعض ماقاله الجاحظ في هذا الاستعداد : (قد يكون الرجل له طبيعة في الحساب وليس له طبيعة في الكلام ، ويكون له طبيعة في التجارة ، وليس له طبيعة في الفلاحة ، ويكون له الحداء وفي التغيير ـ ترديد الصوت بالقراءة ، أو القراءة بالالحان وليس له طبيعة في الغناء ، وان كانت هذه الانواع كلها ترجع الى تاليف اللحون ، ويكون له طبيعة في الناي ، وليس له طبيعة في السرناي ـ الناي المزمار ، والسرناي آلة للزمر أكبر من الناي ـ ويكون له طبيعة في قصبة الراعي ، ولا يكون له طبيعة في القصبتين المضمومتين ويكون له طبع في صناعة اللحون ، ولا يكون له طبع في غيرها ، ويكون لـه طبع في تاليف الرسائل والخطب والاسماع ولا يكون له طبع في قرض بيت شعر ·

ومثل هذا كثير جدا ، فقد كان عبد الحميد الاكبر وابن المقفع مع بلاغة أقلامهما وألسنتهما لايستطيعان من الشعر الا مايذكر مثله ، وقيل لابن المقفع في ذلك ، فقال : الذي أرضاه لايجيئني ، والذي يجيئني لاأرضاه (٤)

ثم جاء الجرجاني فذكر أن الشعر علم من علوم العرب يشترك فيـه الطبع والرواية والذكاء ، ثم تكون الدربة مادة له ، وقوة لكـل واحد من أسبابه ، فمن اجتمعت له هذه الخصال فهو المحسن المبرز ، وبقدر نصيبه منها تكون مرتبته من الاحسان (٥)

ولا يخالف المحدثون من النقاد وعلماء النفس في شيء من هذا ، وان

زاد بعضهم ناحية من الاكتساب لاتتعارض مع الاستعداد ، بل تقويه وتنميه ، يقول براون Brown (٦) ان مشكلة الفطري والمكتسب لها تاريخ طويل والعهد بطرفيها متضادان غالبا ، لكننا نشهد أيضا نوعا من الاتساع بين الحين والحين ينتاب ناحية الاكتساب على حساب ناحية الوراثة أو الاستعداد الفطري ولكن برغم هذا الاتساع المطرد لانظن أننا سوف نستغني عن فكرة الوراثة نهائيا ، وان كان هذا أمل البعض ، والحق أنه لاوراثة بغير اكتساب ، ولا اكتساب بغير وراثة ، أي أن كل ماهو موروث فينا يمكننا في الحاضر أو في المستقبل أن ندخل عليه بعض التغيير ، كما أن كل مانكتسبه لابد أن يقوم على استعداد فطري فينا (٧)

(٢)

كانت بيئة العرب مذكية لشاعريتهم ، فهي بيئة هادئة ، بنجوة من رجات الارض وكوارث الجو ، ومفارقات السطح بين جبال شم ووهاد غائرة ، وهي خالية من الغابات والكهوف والمغارات وما يشبهها من المرئيات التي توحي بالفزع والرعب واضطراب الخواطر وانبهام الاحلام فتذهب بالشاعرية أو تضعفها ·

وقد لاحظت الباحثة سمبل Semple أن جبال الالب الشاهقة وما حولها من مرتفعات ومنها سويسرا فقيرة في الابداع الفني والشعري ، وعللت هذا الفقر بعنف الطبيعة ، لأن عنفها يقلل المواهب الفنية ، ثم عززت رايها هذا بأن سكان الجبال والتلال الاقل ارتفاعا في سرابيا وتورونجيا أكثر افتنانا ، وأعظم شاعرية ، لان بلادهم أهدأ والطف ومنبهة للمشاعر في غير عنف ·

واكدت رأيها هذا بأنه صادق ثابت لايحتمل الجدال ·

كذلك لاحظت مثل هذه الملاحظة في فرنسا ، وقالت ان الافتنان نادر في سكان سافوي العالية ومقاطعة الالب وشرق البرانس ، على حين يعظم ويزدهر في سكان السهول المنخفضة ·

وخرجت بنتيجة عامة هي أن أكابر الكتاب بعامة من سكان الاودية التي تجري بها الانهار ، ومن سكان السهول ، وقل فيهم من يسكن الجبال أو المرتفعات (٨)

وفي بلاد العرب سكون رهيب يبعث على التأمل ، وبراح فسيح متكشف ، وحرية مطلقة ، وهذا يولد في نفوس السكان الانطلاق في التعبير ، والبوح بما في النفس والاطمئنان الى الجهر ·

وبلاد العرب بلاد النور حيث تسفر الشمس من المشرق الى المغرب ، وللنور أثر في نفس الانسان أعظم أثره في جسمه ، وقد كان جوته يقول وهو يجود بروحه : أريد نورا ، أريد نورا ·

ولزوم النور كلزوم الاوكسجين في الهواء ، وفي البلاد المنيرة الكثيرة الضوء ينفتق الذهن ، ويستيقظ التصور ، ويخف العمل ، أما في البلاد المظلمة فان الاسى يخيم على القلوب ، فلا يجيء الشعر فيها الا بأحلام مضطربة متكلفة (٩)

على أن الصحراء وان خلت أكثر تباعها من الجمال المصنوع غنية بالجمال المطبوع فهنالك يبزغ القمر وضاح الجبين بساما ، ويبعث أشعته الفضية للمدلج والساهر والسامر فيخلب لبه ، وهنالك تلتمع النجوم سافرات وتومض كأنها ماسات في سماء صافية الزرقة فتناغي وتناجي ، وهنالك تجدب الارض ، وينبسط الرمل ، ويرتفع النجد ، ويصلد التل ، ولكن السماء تجود على بعض البقاع بالمطر والخصب ، فتنبت الواحات ، وتعشوشب الارض ، ويجري الغيث في مسايل وجداول ، ويستقر في غدران وقيعان ، فاذا ما رأى البدوي الارض وقد اكتست بالخضرة بعد العرى ، واذا مأوى الى الظل والماء بعد جهد الرحلة ، ملكه الاعجاب والروعة ، وأحس بما لايحس به من ألف الخضرة والماء في الوادي الخصيب ·

(٣)

ثم ان اللغة العربية لغة شعرية غنائية ، لأنها حافلة بالمفردات والمترادفات والمشتقات التي تسعف المعبر ، وتطاوعه في الوزن ، وتواتيه بالقافية ، وهي دقيقة في دلالاتها غنية بأساليبها المرنة في التقديم والتأخير والذكر والحذف والايجاز والاطناب وغيرها ، وغنية بالمجازات وفي كلماتها رنين وجرس يلائم الشعر والموسيقى ٠

(٤)

والعربي ذكي ، سريع البديهة ، متوفر الحس ، جياش العاطفة يأسره الجمال ، ويثيره الفرح والرضا والحزن والغضب ، وليس له فن جميل يودعه أحلامه وآماله ومكنون نفسه الا الشعر ٠

فهو بالشعر يسكن وحدته ، ويؤنس وحشته ، ويصور حبرته ، وينفس عن نفسه مايثقلها ويؤلمها ٠

ومن هنا كان الشعر حداء الركب ، وغناء الماتح على البئر ، وأهزوجة المنتصر ، واغرودة العاشق ، وسلوى المكروب والمحروب ، ومتنفس العواطف ، ومجتلي القرائح ، فلا عجب ان كان الفن الجميل الذي اشتهر به العرب ، واحتفلوا بقائليه ٠

(٥)

ولقد كان النظام القبلي من بواعث الشاعرية ، لأن شاعر القبيلة يرى من واجبه أن ينافح عن شرف قبيلته ، ويذيع محامدها ، ويسجلها ويجسمها ،

ويسلق خصومها بلسانه الحاد ، ويقيد مخازيهم ، ويضخمها وكانت حياة القبائل قائمة على عداء وصراع لاتخبو ناره الا لتشتعل ·

واذا كانت الفنون الجميلة تزدهر في ظلال التقدير والرعاية والحرية فان الشعر كان مقدرا وكان مرعيا أيما رعاية في العصر الجاهلي ، وكان الشعراء يتبوأون منازل رفيعة في قبائلهم وفي المجتمع العربي كله ، وكانوا أحرارا في تعبيرهم عنها ·

وكان أكثر الناطقين بالضاد يعدونه مثلا عاليا في العظمة والسمو ، اذ كان شعرا امتدت جذوره الى أعماق حياة الناس ، وشكل أفكارهم دون أن يحسوا ، وجدد أخلاقهم ، وصاغ منهم ــ من الناحية الاخلاقية والروحية ــ شعبا قبل أن يجتهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فيجمع القبائل المتنافرة في أمة واحدة يتجه بها الى هدف واحد ·

(وكانت قصائد الشعراء تطير عابرة الصحراء أسرع من الرياح ، وتحدث أثرها العظيم في قلوب من يسمعونها ، وفي خضم النضال والتفكك كان الشعر يضفي حياة ونشاطا على مثل عالية قائمة على المروءة العربية ، وصارت هذه ألمثل العالية رباطا بين القبائل ، فصاغت عن قصد أو عن غير وحدة أهلية قائمة على أساس عاطفي) (١٠)

لهذا كانت القبيلة اذا نبغ شاعر فيها أتت القبائل فهنأتها ، وصنعت الاطعمة ، واجتمعت النساء يلعبن بالمزاهر كما يصنعن في الاعراس وتباشر الرجال والولدان ، لأنه حماية لاعراضهم ، وذب عن أحسابهم ، وتخليد لمآثرهم واشادة بذكرهم وكانوا لايهنئون ، الا بغلام يولد ، أو شاعر ينبغ أو فرس تنتج (١١)

المراجع والهوامش :

(١) Texsts and Pretexts Aleous. Huxley. p. 139.

(٢) من الوجهة النفسية في دراسة الادب ونقده ، الاستاذ محمد خلف الله أحمد ١٤٥

(٣) الاسس النفسية للابداع الفني ، الدكتور مصطفى سويف ٢٩٩

(٤) البيان والتبيين الجاحظ ١/١٧٨

(٥) الوساطة بين المتنبي وخصومه ، عبد العزيز الجرجاني ١٥٠

(٦) Psychology & The Social order Brown. 263.

(٧) الاسس النفسية للابداع الفني ٢٨٧

(٨) Influence of Geografic Envirnment, Seurple,

(٩) مقدمة الحضارات الاولى جوستاف لوبون ٩١

(١٠) Aliterary Hiotory of the Arabs. Nicholson. p. 72.

(١١) العمدة ، ابن رشيق ١/٣٧